

الأستاذة: زينب قريّس

المقياس: الأدب الشعبي العربي القديم

المستوى: الثانية ماستر، تخصص أدب قديم

عنوان المحاضرة: الشعر الشعبي قبل الإسلام

تمهيد:

تنعكس خصوصيات الشعوب والمجتمعات في آدابها الشعبية، والشعر الشعبي أحد الفنون الشعبية التي تصوّر لنا الملامح الثقافية التي تميّز المجتمعات عن بعضها؛ وينقل لنا الماضي وما ينطوي عليه من أحداث صادقة بعيدة عن الزيف والمبالغة، وأفكار وتقاليد وطقوس، لذلك فقد " اعتبر مصدرا هاما للتاريخ، وصورة هادفة لعادات أهل البلاد وأخلاقهم، فليس هناك ما أوفى من هذا الشعر في تقديم صورة حيّة عن حياة الآباء وكفاحهم في الماضي من أجل الحياة والحرية".

مصطلح الشعر الشعبي ومدلولاته:

الشعر الشعبي مصطلح يدلّ على شكل من أشكال الأدب الشعبي، ونمط من أنماط الثقافة الشعبية، أداؤه اللغوي هو أحد اللهجات العربية، يعرفه التليّ بن الشيخ بأنّه " كلّ كلام منظوم من بيئة شعبه، بلهجة عامية، تضمّنت نصوصه التعبير عن وجدان الشعب وأمانيه، متوارثا جيلا عن جيل عن طريق المشافهة، وقائله قد يكون أميا وقد يكون متعلّما بصورة أو بأخرى مثل المتلقي"¹.
إنّّه وسيلة لغوية عميقة التأثير، تصوّر جميع نواحي الحياة الصغيرة والكبيرة منها، وهو بشكل عام يغطّي مختلف تفاصيل الحياة اليومية للأفراد والجماعات.

عرف بمسميّات كثيرة لدى الباحثين مثل الشعر الملحون، الزجل والشعر النبطي.

¹ التلي بن الشيخ: دور الشعر الشعبي في الثورة، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1983، ص. 395.

بدايات الشعر الشعبي العربي (شعبية الشعر الجاهلي)

من الصعب البحث عن الأدب الشعبي في فترة ما قبل الإسلام، لقلة الاهتمام به والتركيز على الفصيح، فالكثير منّا لا يعرف عن الشعر الشعبي في العصر الجاهلي ولا يحسن تصوّره. لكن هذا لا يعني غيابه وعدم وجوده. إذ يتفق جلّ الباحثين أنّ بدايات الشعر الشعبي العربي ترجع إلى العصر الجاهلي مع ظهور بعض اللهجات العربية، حيث لم تكن القبائل العربية جميعاً تتكلّم لغة واحدة " فقد كان لأهل اليمن لغتهم، ولبقية أهل الجزيرة لغتهم، حتى قال أبو عمرو بن العلاء: ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيتنا بعربيتهم (...) وكانت القبائل التي تسكن في شرق الجزيرة لهجتها تميّز عن القبائل التي تسكن غربها، فكانت الأولى تعرف بلهجة تميم وعرفت الثانية بلهجة الحجاز أو قريش ولازال الأمر أبعد من ذلك مدى، فقد كان لكلّ قبيلة داخل هاتين المجموعتين لهجتها المتميّزة عن لهجة القبائل بالرغم من أنّها تتكلّم لغة عربية واحدة"¹.

لكن العرب في الجاهلية لم يشعروا أو لم يشعر كثير منهم بأنّهم أمة واحدة، أو شعب واحد شورا قويا، إنّما تفاوت هذا الشعور عند الجماعات المختلفة التي تسكن مناطق متباعدة من شبه الجزيرة العربية. فهم لم يعرفوا من الجماعات غير القبائل. وبما أنّ الشعر الشعبي هو المعبر عن الجماعة، فقد كان أقرب إليه الشعر القبلي، لأنّه " الشعر الوحيد الذي يعبر عن الجماعات لا الأفراد، فلا فواصل بين الفرد والقبيلة ولا كيان للفرد وحيدا، وإذا لحقت إهانة للفرد كانت إهانة للقبيلة (...) فيكون الشاعر في هذه الأحوال هو المعبر عن قبيلته، ولذلك كانت القبيلة تحتفل بما تخرّج من الشعراء احتفالا عظيما"².

يقول حسين نصّار في هذا الشأن:

" لقد عبّر الشعر الجاهلي أو كثير منه عن المجتمع الذي ظهر في أدقّ تعبير فكشف عن وجدانه وأبان آماله وصور اتجاهاته الفكرية، ولذلك فهو شعر جماعي، يختفي الضمير الدال على الفرد وتردّد

¹ حسين نصّار: الشعر الشعبي العربي، منشورات إقرأ، بيروت، لبنان، ط2، 1980، ص22.

² المرجع نفسه، ص24، 25.

في الضمير الدال على الجماعة، ولكنّ المجتمع العربي في ذلك الوقت لم يكن شعباً وإمّا كان قبيلة¹. فالشعر الجاهلي لم يعبر عن العرب كشعب واحد وإمّا كان يعبر عن الجماعة المحصورة في القبيلة الواحدة. ويمكن اعتبار الشعر القبلي شعراً شعبياً لأنّه يعبر عن الجماعة.

لقد وصف شعراء الجاهلية البيئة العربية وطبيعتها القاسية بأدقّ تفاصيلها، وصوّروا في شعرهم حياتهم وارتباطاتهم الجماعية، لم يتركوا شيئاً يتعلّق بالمجتمع إلّا وأنشدوا فيه شعراً²، إمعاناً منهم في وصف حياة الشعب، وهذا ما جعل الشعر الجاهلي يوصف بأنّه شعر شعبي عند كثير من الباحثين. وأمّا من ناحية الشفاهية والتدوين، فالشعر الجاهلي عاش على ألسنة الرواة، ولم يكتب منه سوى المعلّقات، " وفكرة شفاهية الشعر الجاهلي وشعبيته تجعلنا نظنّ في أنّه قد فقدنا شيئاً أصيلاً وهاماً عند تدوينه".

أنواع الشعر الشعبي في الجاهلية:

● أ/ الرجز:

يعدّ الرجز من أقدم ألوان الشعر عند العرب، ظهر منذ الجاهلية وكان ألصق بحياة العرب البسطاء سواء في أسفارهم أو في نشاطات حياتهم الأخرى إثناء إقامتهم. كانت بداية هذا الفن الشعري الشعبي بالحداء، الذي يعتبر أصل الشعر العربي أساساً، يقول شوقي ضيف:

" وأمّا الحداء فيظهر أنّه كان غناء شعبياً عاماً للعرب في العصر الجاهلي، يغنون به إبلهم في مسيرهم ورحيلهم، واقترن به وزن خاص معروف هو وزن الرجز. ونحن نلاحظ أنّ هذا الوزن لم يكن خاصاً بالحداء، بل كان يستخدم في الحماسة والحروب (...). وليس من شكّ في أنّه شعر وغاية ما في الأمر أنّه كان يقتن بزروب كثيرة من الغناء في الحماسة والحروب والسقي من الآبار كما يقتن بالحداء، فكثرت فيه الحذف وكثرت فيه التجزئة والاضطراب"³.

¹ حسين نصّار: الشعر الشعبي العربي، ص32

² أحمد قنشوبة: الشعر الغرض: قراءات في الشعر الشعبي الجزائري، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص41.

³ شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص43.

فالرجز وزن شعري معروف، يسهل النظم فيه، لذلك استخدمه العرب ليعبروا عن شتى مناحي حياتهم كالخداء والحماسة والحرب، يقترن بالغناء ويكثر فيه التجزيء، حتى يسهل الغناء والحفظ.

اختلف القدماء في النظر إلى الرجز، فمنهم من يجرمه مكانة الشعر وروعته فيقول إنّه شعر منحط، وقد دأب إلى ازدرائه الجاهليون والإسلاميون ومن بعدهم من خواص الشعراء والنقاد. ونظرتهم هذه شبيهة بنظرة أدباء الفصحى من المحدثين إلى الزجل. وفي هذا الشأن يقول طه حسين: "والذي نعرفه عن الرجز أنّه في العصر الجاهلي كان فنا من فنون الشعر لا يحفل به الشعراء، ولا يقفون عنده ولا يلتفتون إليه، وإنّما كان أشبه بالزجل أو بهذه المواويل"¹.

وكما ارتبط الخداء بالرجز عند العرب القدماء، تشبيها منهم بمرض الرجز الذي يصيب قوائم الناقة أو البعير، فترتعد وترتعش الأفخاذ والمؤخرة عند القيام. ارتبط الرجز أيضا في الجاهلية بالهجاء - حسب بعض المستشرقين - لأنّ العرب سمّوه بذلك تشبيها منهم بصوت الرعد المتتابع المتدارك، حين لاحظوا هدير الراجز به وهو يهجو خصومه.

أمّا عن اللغة الرجز، فقد "تسرّبت إلى الرجز - بخلاف الشعر - بعض الظواهر التي تنفرد بها اللهجات دون اللغة الفصيحة، فرأينا راجزا يقلب السين تاء كما تفعل قبيلته، ويقول :

ياقبح الله بني السعلات عمرو بن يربوع شرار النات

ليسوا أعقاء ولا أكيات"

فالمقصود الناس، أكياس، أو قد تقلب الياء المشدّدة جيما عند بعض القبائل، نحو قول الشاعر:

عمي عويف وأبو عالج المطعمان الشحم بالعشج²

ف"أبو عالج" هو أبو علي، والعشج بمعنى العشي.

¹ حسين نصار: الشعر الشعبي العربي، ص 37، 38.

² المرجع نفسه، ص 42، 43.

إذن فشعراء الرجز أحرار في اختيار ألفاظهم، بخلاف الشعراء، وأحرار في معاملتها، فاشتقوا منها ما حلا لهم من المشتقات، ورأوا أنّ يؤدّي عنهم ما يريدون تأديته من صور انفعالية، وتصرفوا في الألفاظ زيادة وحذفاً، فحقّقوا المشدّد، وفكّكوا المدغم، وحذوا حروفاً وزادوا أخرى، وقلبوا بعضها، وأمالوا منها. إمّا تصويراً للهجات قبائلهم، أو ظاهرة فردية اضطروا إليها في أرجازهم وأرغمهم عليها الوزن. لذلك نجد صوراً مختلفة لرجزهم لما أصاب وزنه من زحافات وعلل، فجاء شعرهم على أربعة صور هي الرجز التام، مجزوء الرجز، منهوك الرجز ومشطوره.

● ب- الحداء:

كان العربي في القديم يقود قافلته في الصحاري، وهو ينشد أشعاراً ليسلي نفسه وينسى متاعب الطريق ويدفع دابته لمواصلة السير، ويسمّى هذا الشعر بـ "الحداء"، وهو أقدم أنواع الشعر والغناء التي توصّل إليها العربي. وما شعر وصف الإبل إلّا إحدى ثمار الحداء الذي تطوّر وصار شعراً فنياً خاصاً.

يشترك الحداء من الحادي وهو قائد القافلة بمعنى "أنّه شخص عاد وليس شاعراً متمرساً، فشعره كان بسيطاً، سواء من حيث المواضيع التي لا تخرج عن نطاق محيطه وهي في أغلبها وصف للطريق وللمأماكن التي يستريحون فيها، وما تتمّ مشاهدته من الطبيعة طيلة الرحلة. أمّا من حيث اللغة فمن المؤكّد أنّها تحتوي على لهجات القبائل التي ينتمون إليها وليست فصيحة كشعراء الطبقة الأولى" فالحادي إذن لم يكن شاعراً محترفاً وإنّما كان فرداً عادياً من القافلة، يرتجز بلغة قومه. قال حاد يصف ناقته التي أهزلها الظمأ وسير الليالي وسرعة الرحلة حتّى صارت كالقوس:

كأنّها وقد براها الإخماس ودلج الليل وهاد قياس

شرائع النبع براها القواس

ووصف آخر الليل الساكن والقمر المضيء الذي أثار طريقه:

ياحبذا القمرء والليل الساج وطرق مثل ملاء النساج

وقد يعزّ الحادي عن شوقه للأحبة الذين فارقهم، وحزنه لهذا الفراق، وشوقه الذي استبدّ به، ويخلع كلّ هذه المشاعر عن على ناقتة، فهما سواء في انفعالاتهما، يعين كل منهما الآخر، ولكنّهما مختلفان في مرآتهما، فهي تعلن الشوق وهو يخفيه، قال:

دع المطايا تنسم الجنوباً إنّ لها لباً عجيباً

حينئها وما اشتكت لغويا يشهد أن فارقت حبيباً

وما حملت إلّا فتى كئيباً يسرّ ممّا أعلنت نصيباً

لو ترك الشوق لنا قلوباً إذن لآثرنا بهنّ النيباً

● ت- التلبيات الدينية:

كانت القبائل العربية في الجاهلية تقصد مكة لتأدية موسم الحج ، فمنهم من بقي على دين التوحيد متبعين ملّة إبراهيم عليه السلام يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئاً، ومنهم من أشرك بالله فلجأ إلى عبادة الأصنام، وهم يهللون ويدعون، مع اختلاف الصيغ والآداء باختلاف القبائل، فكانت عك من قبائل اليمن إذا خرجت للحج، قدمت في صدر الركب غلامين أسودين ليبدأ التلبية بالقول:

نحن غرابا عكّ

فيردّ عليهما الباكون:

عكّ إليك عانية

عبادك اليمانية

كيما نحج الثانية

وكانت نزار من القبائل الشمالية تقول في تلبيتها:

لبيك اللهم لبيك

لبيك لا شريك لك

ألا شريك هو لك

تملكه وما ملك

وأما قريش فكانت تقول في طوافها:

واللات والعزى

ومناة الثالثة الأخرى

فإنهنّ الغرائق العلى

وإنّ شفاعتهنّ لترجى

وكان لهبل منزلة خاصة عند قريش، يضربون عنده بالقداح وينشدون:

إنّا اختلفنا فهب السراحا

ثلاثة - ياهبل - فصاحا

الميت والعذرة والنكاحا

والبرء في المرضى والصحاحا

إن لم تقله فمر القداحا¹.

• ث- النواح:

¹ حسين نصّار: الشعر الشعبي العربي، ص 45-48.

وصف الشاعر الجاهلي الحياة القديمة بتفاصيلها، فسور عاداته وتقاليده، وطقوسه التي يمارسها، كما صور أفراحه وأحزانه، ومن الأحزان التي تصيبه فقدته للأحبة الذين أخذتهم الموت. وليعبر العرب عن هذا الألم لجأوا إلى النواح والذي فاقت فيه النسوة الرجال، حيث عمدت نساء العرب إلى بكاء الموتى، وكان النوح بالغ الأهمية عندهم. يمدحون فيه الميت بالفضائل العربية المعروفة، ويصفون ما يحس به الناس من حزن وهم وكدر لغيابهم خصوصا إذا كان الميت قتيلا.¹

يعتبر النواح رثاء شعبيا يختلف عن الرثاء الخاص، في كونه يعتمد على وزن الرجز، يقول حسين نصار:

" التفرقة بين الشعر الشعبي والخاص والرثاء عسيرة أو متعذرة، فإن ما وصل إلينا من رثاء من أوزان مختلفة، ولكي أقصر الكلام على الرثاء الرجز، مطمئنا بذلك إلى أنني أتكلّم عن رثاء شعبي"².

ومن أمثلة النوح الجاهلي ما قالته امرأة ترثي أحباها:

يامرّ يا خير أخ نازعت درّ الحلمة

ياخير من أوقد لد أضياف نارا جحمة

ياجالب الخيل إلى ال الخيل تعادي إضمه

ياقائد الخيل ومجتا بالدلاص الدرمة

سيفك لايشقى به إلّا العسير السنمة

جاد على قبرك غيث من سماء رزمة

ينبت نورا أرجا جرجاره والينمة³

فهذه المقطوعة تذكر محاسن الميت وفضائله من إكرام الضيف وقوة وشهامة في القتال.

¹ المرجع نفسه، ص 90.

² المرجع نفسه، ص 90.

³ المرجع نفسه، ص 90، 91.

